فريق موقع الآجري للتفريغ

سلسلة تفريغات الثالثة

(٠٢)

شَرحُ

كِتَــابِ الكَبَــــائِرِ وَتَبْيِينِ الْمَحَارِمِ

تَأْلِيف

الْحَافِظِ أَبِي عَبْدِاللهِ مُحَمَّدِ بنِ أَحْمَدٍ بنِ عُثْمَانَ بنِ قَايمَازِ الذَّهَبِيّ

٦٦٣-٧٤٨ هـ

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

مقدمة المؤلف

النسخة الإلكترونية الأولى

www.ajurry.com

[أشرطة مفرغة]

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

مُقَدِّمَة المُؤَلِّف

[المتن]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. [رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِن.]

قَالَ الشَّيْخُ الإِمَامُ النَّاقِد الْحَافِظُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بنُ أَحْمَدُ بنُ عُثْمانُ بنُ قَايْماز الذَّهَبِيُّ - غَفَرَ اللهُ لَهُ-:

الْحَمْدُ للهِ عَلَى الْإِيْمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَمَلائِكَتِهِ وَأَقْدَارِه، وَصَلَّى اللهُ عَلى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِـهِ وَأَنْصَارِهِ صَلاةً دَائِمَةً تحلنا دَارَ الْقَرَارِ فِي جِوَارِه.

[الشرح]

عادة في الاستهلال وفي الغالب أن يكون في الاستهلال نكتة بديعة، قد يسمى مثل هـٰذا الاستهلال ببراعة الاستهلال إذا كان فيه لفتٌ لمعنى عظيم يتعلق بالموضوع الذي ألّف المصنف لأجله، أو إذا كان الاستهلال عنوانا للمصنَّف بحيث إذا قرأت استهلال المصنف عرفت موضوع مصنفه بالاستهلال.

وهنا قد الذهبي رحمه الله استهل هـٰذا الكتاب بهذا الحمد؛ حمد الله عز وجل على نعمة الإيمان، والله عز وجل يحمد على أسمائه الحسنى وصفاته العظيمة، ويحمد على نعمه العظيمة ومننه على عباده التي أجلها وأعظمها وأكبرها قدرا نعمة الإيمان.

والإيمان منة الله جل وعلا على عباده المؤمنين ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾[الحجرات:٧-٨]، وقال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾[الحجرات:١٧]، فالإيمان منة الله، وهو أعظم منن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على عباده المؤمنين.

فاستهل الإمام الذهبي رحمه الله هـٰذا الكتاب المبارك -كتاب الكبائر- بحمد الله على نعمة الإيمان: الإيمان الله وبكتبه ورسله وملائكته وأقداره، مشيرا بهذا الحمد إلى أن تحقيق هـٰذا الإيمان

على الوجه الصحيح المطلوب يدفع عن العبد غشيان هـٰذه الكبائر، بينما إذا ضعف إيمان العبد في قلبه مالت نفسه إلى الكبائر، أما إذا آمن بالله وعرفه، وآمن باليوم الآخر وحقق الإيمان به، وآمن بالكتب وما جاء فيها وحقق الإيمان وآمن بالرسل وكمال دعوقم والخير الذي في دعوقم، إذا حقق هـٰذا الإيمان في قلبه وملأ قلبه بهذا الإيمان كان في بعد كبير ومجانبة عظيمة للكبائر.

فإذن هنا الذهبي رحمه الله يحمد الله على هـٰذه النعمة العظيمة، وينبه من يقرأ الكبائر ويعرفها إلى أهم أمر وأعظم أمر في تحقيق الاجتناب بأن يحقق العبد الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبكل ما أمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عباده بالإيمان به من الإيمان بكتبه والإيمان برسله والإيمان بأقداره وبالإيمان بملائكته والإيمان باليوم الآخر.

ولو أنك تتبّعت أثر الإيمان بهذه الأصول الستة تفصيلا على تحقيق اجتناب الكبائر لوجدت بابا واسعا وعظيما من الفقه في هـٰذا الباب، **معرفتك لله وإيمانك به، وإيمانك بالملائكة**؛ الملائكة الكاتبين والملائكة الذين يتعاقبون، وكتابة الأعمال، **إيمانك بالكتب** وتفاصيل الهداية التي وردت فيها، **إيمانك بالرسل** ودعوتهم أممهم إلى كل خير، ((**ما بعث الله من نبي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته إلى خير ما يعلمه لهم، ويحذرهم من شر ما يعلمه لهم**))، **إيمانك باليوم الآخر** وأنه دار الجزاء والحساب ولقيا رب العالمين، واليوم الذي يجد فيه الإنسان ما قدم في هـٰذه الحياة حاضرا، ما يذكره الإنسان من ذلك وما نساه ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[المجادلة:٦]، فهـٰذا الإيمان الذي استهل به الذهبي رحمه الله مصنفه هو الذي تتحقق به سعادة العبد وإقباله على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبعده عن كل ما يُسخطه جل وعلا ويأباه.

[المتن]

هٰذا كِتَابٌ نَافِعٌ فِي مَعْرِفَةِ الْكَبَائِرِ إِجْمَالاً وَتَفْصِيلاً، رَزَقَنَا اللهُ اجْتِنَابهَا بِرَحْمَتِهِ.

[الشرح]

ثم ذكر هنا ما هو موضع الكتاب فقال: (هـٰذا كِتَابٌ نَافِعٌ فِي مَعْرِفَةِ الْكَبَائِرِ إِجْمَالاً وَتَفْصِيلاً) (إِجْمَالاً) بالمقدمة التي أورد فيها الأدلة من القرآن والسنة على اجتناب الكبائر والتحذير منها، وبيان أن من الذنوب كبائر وصغائر، وبيان حد الكبيرة وضابطها الذي به تعرف، (وَتَفْصِيلاً) بعدّ الكبائر وسردها وذكر الأدلة على كل واحدة منها.

فـ(هـٰذا كِتَابٌ نَافِعٌ فِي مَعْرِفَةِ الْكَبَائِرِ إِجْمَالاً وَتَفْصِيلاً، رَزَقَنَا اللهُ اجْتِنابِهَا بِرحْمَتِهِ.) (رَزَقَنَا اللهُ اجْتِنَابِهَا بِرَحْمَتِهِ) هنا أيضا فائدة في موضوع اجتناب الكبائر إضافة إلى علم العبد بها وبخطورتها هو بحاجة ماسة إلى عون الله له على تركها واجتنابها، وإلا قد يكون الإنسان على علم بالكبيرة وعلى علم بخطورتها؛ ولكن نفسه أو شيطان أو قرناء السوء قد ينجر إلى كبيرة أو أكثر مع علمه بها وعلمه ببعض أدلتها وبخطورتها؛ لكنه يترلق.

ولهذا ينبغي على العبد أن يجمع مع العلم طلب العون دائما وأبدا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ أن يرزقه التوفيق وأن يجنّبه الأمور التي تسخط الله جل علا.

ولهذا شرع للمسلم في كل مرة أن يخرج من بيته أن يقول: اللهم أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي.

ولهذا من المناسب جدا لنا أجمعين –وقد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ علينا بالاجتماع على مدارسة هـٰذه الكبائر وقراءتها– أن نسأل الله جل وعلا أن يجعل هـٰذا الاجتماع موجبا لرضاه وأن يكون عونا سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ على البعد عنها واجتنابها إلى أن نلقاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ وهو راضٍ عنا.

[المتن]

قَالَ اللهُ تَعالىٰ: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا﴾[النساء:٣١]، فَقَد تَكَفَّلَ اللهُ تَعالىٰ بِهذَا النَّصِ لِمَنْ اجْتَنَبَ الْكَبَائِرِ بَأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّة.

وَقَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[الشورى:٣٧]، وَقَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢].

[الشرح]

هـٰذه الثلاث آيات من القرآن الكريم في اجتناب الكبائر، وكلها جاءت بهـٰذا اللفظ –لفظ الاجتناب– كذلك هـٰذا اللفظ جاء في السنة ((**اجتنبوا السبع الموبقات**))، والأمر بالاجتناب أبلغ من الأمر بالترك أو النهي عن الفعل؛ لأن الاجتناب ينتظم ترك الكبيرة والبعد عنها.

ومثله النهي عن القربان أبلغ عن النهي عن الفعل أو الأمر بالترك؛ لأن فيه ترك هـٰذا المنهي والبعد عنه.

فهـٰذه الآيات التي فيها الدعوة إلى اجتناب الكبائر مشتملة على أمرين:

على ترك غشيان الكبائر وفعلها.

والأمر الثاني البعد عنها بأن يكون العبد في جانب بعد عنها؛ بأن يغلق النوافذ والأسباب والسبل التي تفضي به إلى الكبائر وتجره في الوقوع فيها، فلا يفعلها ولا يحوم حول حماها، ولا يكون قريبا منها؛ بل يكون في جانب بعيد.

فهـٰذا معنى الأمر باجتناب الكبائر بأن يكون العبد بعيدا عنها بعيدا عن أماكنها، بعيدا عن من يدعوه إليها، بعيدا عن الوسائل التي تحركها القلب، وقد كثرت في زماننا القنوات السيئة والمواقع الخبيثة في شبكة الانترنت والمجلات الهابطة وغير ذلك، فتنوعت الوسائل.

فعدم النظر إلى هـٰذه الأشياء وعدم سماعها داخل في الاجتناب، وهو جزء من الاجتناب، فليس الأمر بالترك فقط؛ بل الأمر فيما يتعلق بالكبائر هو أمر بالاجتناب بأن لا يقارف الكبيرة ولا يفعلها ولا يفعل أيضا أي أمر يفضي به إلى الكبيرة والوقوع فيها.

ذكر المصنف رحمه الله ثلاث آيات من القرآن الكريم في اجتناب الكبائر:

الآية الأولى من سورة النساء ذكر الله فيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن اجتناب العبد للكبائر يترتب عليه تكفير السيئات والمدخل الكريم وهو الجنة، فهـٰذه ثمرة، ثمرة اجتناب الكبائر تكفير السيئات؛ يعني ما وقع فيه العبد من السيئات ومن الذنوب ومن اللمم فتكفر عنه سيئاته باجتنابه للكبائر، ويكون هـٰذا الاجتناب سببا لدخول الجنة.

والجنة تدخل برحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالإيمان والأعمال الصالحة، وعليه فهـٰذه الآية فيها فائدة عظمة ألا وهي أن اجتناب الكبائر يعدّ عملا صالحا يحبه الله ويرضاه من عبده، فالترك عمل ومن الأدلة على أن الترك عمل قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**)) فعد الترك عملا صالحا يتقرب به إلى الله جل وعلا، فكما أن المرء يتقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بفعل الفرائض والرغائب والمستحبات، فإنه كذلك يتقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بترك المحرمات والبعد عن المكروهات، وهـٰذه طاعة الله، طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتقواه بفعل ما أمر وترك ما نهى عنه وزجر، فطاعة تتناول الأمرين كما أن معصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تتناول الأمرين؛ ترك المأمور وفعل المحظور.

ترك المأمور هو الذنب الذي عصى به إبليس ربه، أمره بالسجود فاستكبر وأبى.

وفعل المحظور هو الذنب الذي عصى به آدم ربه، نهاه عن أطل الشجرة أكل من الشجرة ومنعه من أكل منها فعل المحظور فعل ما نهاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنه.

فالمعصية تكون بهذا وبهذا، بترك المأمور ترك الأوامر، ترك ما أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عباده بـه، وتكون بفعل المحظور أي فعل ما نهى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنه، وطاعة الله جل وعلا تكون بفعل ما أمر وترك ما نهى عنه وزجر.

ثم الآية الثانية هي في بيان وصف عباد الله المؤمنين الكمّل حيث ذكر في أوصافهم (﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[الشورى:٣٧]) وهـٰذه الآية فيها فائدة أن اجتناب الكبائر يكون به كمال الإيمان الواجب، والكمال في الإيمان كمالان: كمال واجب وكمال مستحب، واجتناب الكبائر يكون به كمال الإيمان الواجب، وفعلها والوقوع يكون به نقص الإيمان.

ولهذا من يفعل الكبيرة يرتفع عنه الإيمان المطلق، ولا يكون بفعله للكبيرة مرتفعا عنه مطلق الإيمان، بمعنى أنه كان بذاك كافرا؛ بل يرتفع عنه الإيمان المطلق التام الكامل الواجب على العباد، وهـٰذا جاء في الحث الصحيح في الصحيحين وغيرها من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن**))، فأفاد هـٰذا الحديث ارتفاع الإيمان -الإيمان التام الكامل- فلم يكن بارتكابه هـذه الكبائر من أهل الإيمان المطلق الذي هو الإيمان الكامل الواجب، ولا يكون أيضا في الوقت نفسه كافرا؛ لأن هـٰذه الكبائر لا يكون فِعلها مخرجا من الدين ناقلا من الملة؛ بل فاعلها يكون ناقص الإيمان ضعيف الإيمان رقيق الدين، وقد يتمادى أمره بها ويستفحل شأنه معها إلى أن ينتقل من الدين بفعل الأمور المكفرة، وهـٰذه خطوات الشيطان وتجرده في الإنسان خطوة خطوة حتى يجعله من أبعد ما يكون من دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

فإذن هـٰذه الآية الثانية فيها فائدة عظيمة في موضوع اجتناب الكبائر ألا وهي أن فيها دليلا على أن اجتناب الكبائر فيه تحقيق للإيمان التام الكامل الواجب، وأن فعلها وارتكابها يخرج العبد من الإيمان

المطلق الإيمان الكامل الإيمان الواجب فيكون بذلك مؤمنا ناقص الإيمان، وهكذا قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا زني الزاني حين يزني وهو مؤن**)) أي وهو مؤمن كامل الإيمان؛ بل يكون بهذه الكبيرة مؤمنا ناقص الإيمان مؤمنا ضعيف الإيمان، وهذا المعنى ورد في قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إذا زنى العبد ارتفع عنه الإيمان ارتفع عنه الإيمان وكان عليه كالظلة**)) والظلة ملازمة لصاحبها، وهذا فيه إشارة للأمرين أنه خرج من الإيمان الكامل و لم يخرج من الدين مطلقا؛ لأن ظلة الشيء معه وملازمة له، فلا يكون بارتكابه للكبيرة مؤمنا الإيمان الواجب؛ بل يكون مؤمنا ضعيف الإيمان.

أيضا نستفيد من هذه الآية ونظائرها ومن الحديث الذي أشرت إليه فائدة عظيمة جدا تتعلق بحد الإيمان وتعريفه عند أهل السنة والجماعة، والفائدة التي نستفيده هنا أن اجتناب الكبائر داخل في مسمى الإيمان، فكما أن الإيمان يتناول عقائد الدين ويتناول الأقوال الصّالحة والكلمات الزاكية التي يحبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من عبده، ويتناول الأعمال الصالحة التي يتقرب بها إلى الله جل وعلا، فهو في الوقت نفسه يتناول ترك المحرمات، وعندما قال السلف رحمهم الله: الإيمان قول واعتقاد وعمل. يدخل تحت قولهم (وعمل) ترك الحرام؛ لأن ترك الحرام عمل صالح يحبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من عبده ويرضاه.

ثم الآية الثالثة (﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ**﴾[النجم:٣٢]) أفادت هذه الآية ثمرة عظيمة من ثمار اجتناب الكبائر وهي نيل مغفرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا ختمت الآية بقوله ﴿**إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ**﴾ وأهل العلم ذكروا قاعدة ومنهم العلامة ابن القيم في بعض كتبه والعلامة ابن سعدي في قواعده الحسان تتعلق بالآيات القرآنية المختومة بأسماء الله وصفاته، فثمة قاعدة في هذا الباب ذكرها أهل العلم وهي أن كل آية خُتمت باسم من أسماء الله أو أكثر لذلك الاسم تعلق وارتباط بالمعنى المذكور في الآية.

والآية هنا اجتناب الكبائر وختم الآية بذكر أن الله جل وعلا واسع المغفرة، والارتباط بين موضوع الآية وخاتمتها أن مجتنب الكبائر له الحظ الوافر والنصيب العظيم من مغفرة الله جل وعلا.

ثم في هذه الآيات الثلاث التي أوردها المصنف دلالة واضحة على أن الذنوب تنقسم إلى قسمين: كبائر وصغائر. وسيأتي عند المصنف رحمه الله الضابط الذي يميز به بين الصغيرة والكبيرة.

والآية الثالثة من هـٰذه الآيات فيها زيادة وضوح في الدلالة على هـٰذا التقسيم، قوله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال أكثر المفسرون إلا الصغائر، ﴿اللَّمَمَ﴾ يعني إلا الذنوب التي لا تصل إلى درجة أو إلى حد الكبيرة.

ثم الآيتين الأخيرتين ذكرت الكبائر والفواحش، والفاحشة هو أمر يخالط الكبيرة فتصبح إضافة إلى كونها كبيرة فيها فحش؛ يعني إضافة إلى كونها كبيرة ينضم إليها ها الفحش الشناعة العظيمة في الأمر، فالفحش هو أمر يخالط الكبيرة فتزداد بمقاربته فحشا وشناعة وفضاعة إلى شناعتها وفضاعتها.

يعني مثلا لو أن إنسانا شرب الخمر فهو ارتكب كبيرة، فلو شربه في نهار رمضان صار إضافة إلى كونه كبيرة فحشا. الزنا كبيرة لو زنا العبد والعياذ بالله بمحارمه، إضافة إلى كونه كبيرة فحشا، وهكذا قد يخالط الكبيرة أمر من الأمور فينضاف إلى كونها كبيرة ينضاف إليها الفحش.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((الْصَلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلى الْجُمُعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرِ))،

[الشرح]

وهـٰذا الحديث المبارك فيه فضيلة اجتناب الكبائر وفضيلة المحافظة على الفرائض، وأن خيرية الإنسان وفوزه وسعادته في الدنيا والآخرة لابد فيه من الأمرين: المحافظة على الفرائض واجتناب الكبائر.

ولهذا ذكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحقق هـٰذا الخير بالأمرين، قال: ((**الْصَلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلى الْجُمُعَةِ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهما ما لم تغش الكبائر**)) يعني ما يترك الإنسان الكبائر، فاجتمع في الحديث الأمران، فعل الفرائض والمحافظة عليها واجتناب الكبائر والبعد عنها، وأن الخير والسعادة للإنسان إنما تتحقق بهذين الأمرين معا.

[المتن]

فَتَعَيَّنَ عَلَيْنَا الْفَحْصُ عَنِ الْكَبَائِرِ مَا هِيَ لِكَي يَجْتَنِبَهَا الْمُسْلِم.

[الشرح]

هــٰـذا تنبيه لطيف من المصنف إلى الفائدة من معرفة الكبائر، وقد يسأل سائل لماذا نتعلم الكبائر؟ لماذا نجلس لقراءة الكبائر؟ قد يسأل سائل لماذا صنف أهل العلم مصنفات في الكبائر؟

والجواب على ذلك كما ذكر الإمام الذهبي رحمه الله هنا: (**فَتَعَيَّنَ عَلَيْنَا الْفَحْصُ عَنِ الْكَبَائِرِ**) يعني عندنا نصوص كثيرة في القرآن وفي السنة في الدعوة في اجتناب الكبائر وذكر الآثار المباركة والثمار العظيمة التي يجنيها المسلم باجتنابه للكبائر، فهــٰـذه النصوص عِلْم المسلم بها يتعين به أن يفحص عن الكبائر، أن يكشف عنها ويبحث عنها ويعرفها لماذا ليجتنبها، فالاجتناب الذي أمرنا به في النصوص التي مضت لا يتحقق إلا بالفحص عن الكبائر ومعرفة الكبائر، وكما قدمت كيف يتقي من لا دري ما يتقي، من لا يعرف الكبائر من لا يعرف المحرمات كيف يتقيها.

فاجتناب الكبائر الذي أمرنا لابد فيه أولا من العلم ولهذا قال طلق بن حبيب في تعريفه للتقــوى الذي أرشت إليه قال: تقوى الله أن تعمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثــواب الله، وأن تتــرك معصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله. قوله هنا: (على نور من الله) يعني على علــم، يحتــاج الإنسان إلى علم نافع يعرف به الكبائر، يعرف به المحرمات، يعرف به ما نهاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنــه ليتحقق له هــٰـذا الاجتناب الذي أمر به.

قال: (**فَتَعَيَّنَ عَلَيْنَا الْفَحْصُ عَنِ الْكَبَائِرِ مَا هِيَ لِكَي يَجْتَنِبَهَا الْمُسْلِم.**) وهنا أنبّه علــى فائــدة عظيمة في هــٰـذا الباب لعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينفعنا بها.

الآن جمع الذهبي رحمه الله هــٰـذا المصنف الذي شاع وانتشر وقرأه خلق واستفاد منه كثيرون، كم لمصنفه رحمة الله عليه من الحسنات والآثار الطيبة بهذه الدلالة المباركة دلالة الناس علــى الكبــائر وتعريفهم بها وبيانه لخطورتها لاجتنابها، واستهل أيضا كتابه بدعوى لمن يقرأ بأن يرزقه الله الاجتناب.

وهــٰـذا نستفيد من الفائدة أن الداعية لله عز وجل والمعلم كما أنه ينبغي أن ينصح نفسه بمعرفــة الكبائر ليجتنبها أن يعرف الكبائر أيضا ليحذر عباد الله عنها، خاصة في زمان كثر فيه دعاة الباطــل ودعاة الشهوات ودعاة المحرمات، فما من هــٰـذه الكثرة الكاثرة من الدعوة للباطل لزم أهــل الحــق وطلاب العلم أن يذكروا الناس ويبينوا خطورة هــٰـذه المعاصي وجنايتها البالغة على الإنسان في دينه ودنياه.

قال: (**فَتَعَيَّنَ عَلَيْنَا الْفَحْصُ عَنَ الْكَبَائِرِ مَا هِيَ لِكَي يَجْتَنِبَهَا الْمُسْلِم.**) وقوله: (**الْفَحْصُ**) أي من خلال الأدلة ومن خلال مطالعة النصوص وقراءة القرآن الكريم وسنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والكبائر مذكورة في القرآن مذكورة في السنة؛ ولكن جهد العلماء في هـٰذا الباب هو بالفحص عنها والبحث عنها في الأدلة –أدلة القرآن وأدلة السنة– وجمعها وتبويبها وترتيبها في مكان واحد.

[المتن]

فَوَجَدْنَا الْعُلَمَاءَ قد اخْتَلَفُوا فِيهَا؛ فَقِيلَ: هِيَ سَبْعٌ. وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ – عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–: ((اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات ...))، فَذَكَرَ الشِّرْكَ، وَالسِّحْرَ، وَقَتْلَ النَّفْسِ، وَأَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلَ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفَ الْمُحْصِنَات. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

من أهل العلم من قال: عدد الكبائر سبع. واستندوا إلى هـٰذا الحديث قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات** ...)) فوصف هـٰذه السبع بأنها موبقات أي مهلكات وهـٰذا دليل على أنها كبائر بوصف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنها موبقة أي مهلكة لصاحبها.

فبعض العلماء أخذ من هـٰذا الحديث أن عدد الكبائر سبع؛ ولكن الحديث ليس فيه حصر للكبائر بهذا العدد، وإنما ذكر فيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جملة من الكبائر، قد يكون المقام اقتضى التنصيص عليها لمقام السائل أو لأمر معين، أو يكون أعلم بها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أولا ثم أعلم بغيرها فيما بعد، أو لغير ذلك من التعليلات التي ذكرها أهل العلم؛ لكن قطعا أن الحديث ليس حاصرا للكبائر في هـٰذا العدد لدلالة الأحاديث الأخرى الكبيرة على أمور نُصّ في السنة على أنها من الكبائر، كما في الحديث الآخر ((**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**)) قالوا: بلى يا رسول الله. قال: ((**الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور**)) فعقوق الوالدين كبيرة، بل من أكبر الكبائر وشهادة الزور كبيرة، وليس من هـٰذه السبع وقد عده النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكبائر.

فإذن القول بأن الكبائر محصورة في سبع هـٰذا ليس عليه دليل واضح، والاستدلال بهذا الحديث غير مستقيم بالأدلة الكثيرة على وجود كبائر نص في أدلة صريحة واضحة على أنّ الكبائر زائدة على هـٰذا العدد المذكور في هـٰذا الحديث.

[المتن]

وَجَاءَ عَن ابنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُمَا– قَالَ: "هِيَ إلى السَّبْعِينَ أَقْرَبُ مِنْهَا إلى السَّبْعِ".

[الشرح]

(وَجَاءَ عَن ابنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُمَا– قَالَ: "هِيَ إلى السَّبْعِينَ أَقْرَبُ مِنْهَا إلى السَّبْعِ")

هو سئل بناء على هـٰذا الحديث ((اجتنبوا السبع الموبقات)) ففهم أن الحديث حصر الموبقات بهذه السبع، فابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: أهي سبع؟ قال: هي إلى السبعين أقرب. وجاء عنه في رواية أخرى: هي إلى السبعمائة أقرب.

والسبعين والسبعمائة وهـٰذا الرقم يستعمل في اللغة –في لغة العرب– للتكثير، كثيرا ما يؤتى به للتكثير، ويكون العدد لا مفهوم له، ليس مقصودا بذاته، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾[التوبة:٨٠]، المراد ليس هـٰذا العدد تحديدا وإنما إن تستغفر لهم مرات عديدة جدا لن يغفر الله لهم، فقوله: (هِيَ إلى السَّبْعِينَ أَقْرَبُ) هـٰذا إشارة إلى كثرتها لا إلى حصرها في هـٰذا العدد الذي هو السبعين، أو كذلك على الرواية أخرى السبعمائة، فهي ليست محصورة في عدد، إنما الذي ينبغي في هـٰذا الباب أن ينظر في ضابط الكبيرة، وكل ما دل النص على أنه كبيرة يجتنبه ويكون على حذر منه تحقيقا لأمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ بذلك وأمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

[المتن]

وَصَدَقَ وَاللهِ ابنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَدِيثُ فَمَا فِيهِ حَصْرُ الْكَبَائِرِ.

[الشرح]

قوله: (وَصَدَقَ وَاللهِ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما) لأن الإمام رحمه الله فحص النصوص والأدلة ووقف على الأدلة الواضحة والصريحة التي فيها ذكر خصال وخلال أمور عدت في النسة من الكبائر، فقال: (صَدَقَ وَاللهِ) ثم أشار إلى أن الحديث المتقدم والذي احتج به من قال: إنها سبع أشار إلى أنه ليس حاصر للكبائر في هـٰذا العدد.

[المتن]

والذي يتجه ويقوم عليه الدليل أن من ارتكب حوبا من هـٰذه العظائم مِمَّا فِيهِ حَدٌّ فِي الدُّنيَا؛ كَالْقَتْلِ وَالزِّنَا وَالسَّرِقَةِ، أَوْ جَاءَ فِيهِ وَعِيدٌ فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ تَهْدِيدٍ، أَوْ لُعِنَ فَاعِلُهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ فَإِنَّهُ كَبِيرَةٌ وَلابُدَّ.

[الشرح]

هنا هـٰذا الكلام الذي ذكره الذهبي هو حد الكبيرة وضابطها وتعريف الكبيرة؛ يعني بعد هـٰذه المقدمات وبعد هـٰذا التنبيه على أن الكبائر لست محصورة بهذا العدد الذي هو السبع؛ لأن الأقوال في العدد كثيرة وبنيت على فهم لبعض النصوص، يعني قيل: إنها أربع. وقيل: إنها سبع. وقيل: إنها تسع.. وقيلت أقوال في عدد الكبائر بناء على فهم نصوص معينة أو بعض النصوص؛ لكن الصحيح أنها ليست محصورة في هـٰذه الأعداد وأنها كثيرة، وهي مذكورة في كتاب الله وسنة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذن ما الذي ينبغي على المسلم في هـٰذا الباب، إذا كانت ليس هناك عدد معين بمعنى أن يقال عددها عشرين الأولى الثانية الثالثة.. لو كانت محصورة بهذا العدد ما نحتاج لضابط، خلاص عرفت بأنها محصورة بهذا العدد فتحفظ برقمها وعددها ولا يحتاج الإنسان في هـٰذا إلى ضابط.

فإذا كانت ليست محصورة بعدد فكيف يستقيم للإنسان معرفتها أو ما الضابط الذي به يعرف المسلم الكبيرة؟

فذكر الإمام الذهبي: (**والذي يتجه**) في هـٰذا الباب، يعني يتجه في معرفة الكبائر (**ويقوم عليه الدليل أن من ارتكب حوبا من هـٰذه العظائم**) حوبا أي: ذنبا، من هـٰذه العظائم أي: الذنوب كبيرة (**مِمَّا فِيهِ حَدٌّ فِي الدُّنيَا؛ كَالْقَتْلِ وَالزِّنَا وَالسَّرِقَةِ، أَوْ جَاءَ فِيهِ وَعِيدٌ فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ تَهْدِيدٍ، أَوْ لُعِنَ فَاعِلُهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ فَإِنَّهُ كَبِيرَةٌ وَلابُدَّ**) هـٰذا ضابط الكبيرة، ضابط الكبيرة ما جاء فيه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة، ولو أدرت أن تقتصر أكثر وقلت: **الكبيرة هو ما جاء فيه وعيد**. كل ذنب جاء فيه وعيد فهو كبيرة، والحد الذي في الدنيا هـٰذا وعيد على الذنب. وإن شئت التفصيل فكل ذنب جاء فيه حد في الدنيا بأن ليقتل فاعله أو تقطع يده أو نحو ذلك، فكل ذنب جاء فيه حد في الدنيا أو جاء فيه وعيد في الآخرة

بأن غضب الله عليه أو لعنه، أو مثلا جاء في النص أنه لا يدخل الجنة، أو أنه لا يشم رائحتها، أو مثلا يدخل النار، أو نحو ذلك.. فكل نص جاء فيه وعيد من الكبائر.

وأيضا النصوص التي جاء فيها (لا يؤمن) أو (ليس منا) وسيأتي منها نماذج في هـٰذا الكتاب وهـٰذا أيضا من الكبائر؛ لأنه لا يقال: (لا يؤمن) يعني لا يكون نفي الإيمان بفعل هـٰذا أمر مكروه ولا يكون هذا النفي إلا بترك واجب أو فعل محرم -كبيرة-، فما جاء فيه (ليس منا)، أو جاء فيه (لا يؤمن) فمثل هذا النفي لا يكون إلا في الكبائر. فهذا ضابط، فكل نص قيل فيه (ليس منا) أو (لا يؤمن) من فعل كذا، فهذا يدل على أن هذا الأمر من كبائر الذنوب، ومن ذلك الحديث الذي مر قريبا ((**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**))، فالإيمان المنفي عنه هنا ليس الإيمان المستحب، إنما الإيمان الواجب. فنفي الإيمان لا يكون إلا في كبيرة.

وبهذا أيضا ذكر في الوسطية التي عليها أهل السنة في هذا الباب الأحاديث التي جاء فيها نفي الإيمان، فليس القول فيها كما تقول الخوارج: إنه خرج من الدين وانتقل من الملة. وليست أيضا القول كما تقوله المرجئة: إنها لا تؤثر على إيمانه؛ بل هو مؤمن كامل الإيمان مع فعله لها. بل الحق قوام بين ذلك، فهذه الكبائر تنقص الإيمان وتضعفه ولا تخرج من الدين.

قال: (**مِمَّا فِيهِ حَدٌّ فِي الدُّنيَا؛ كَالْقَتْلِ وَالزِّنَا وَالسَّرِقَةِ، أَوْ جَاءَ فِيهِ وَعِيدٌ فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ تَهْدِيدٍ، أَوْ لُعِنَ فَاعِلُهُ عَلى لِسَانِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ فَإِنَّهُ كَبِيرَةٌ وَلابُدَّ.**) وأيضا مثل ما أشرت ما قيل فيه: (ليس منا)، أو قيل فيه: (لا يؤمن)، أو وُصف صاحبه بالنفاق -آية المنافق- أو نحو ذلك من الأمور التي يتضمنها الحديث مما يدل على عظم الأمر.

وكذلك أيضا ما نُصّ على أنه كبيرة بالنصوص ((**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**)) والحافظ بن حجر -رحمه الله- في كتابه فتح الباري في المجلد الثاني عشر في آخره، جمع جمعا طيبا للنصوص التي نّص فيها على أمر من الأمور أنه كبيرة، نص أنه من الكبائر فبلغت العشرين في جمع الحافظ ابن حجر رحمه الله في آخر المجلد الثاني عشر من كتابه فتح الباري.

هـٰذا الآن ضابط به عرفت به الكبيرة، على ضوئه يقال ما هي الصغيرة؟ على ضوء هذا التعريف تستطيع أن تقول: والصغيرة هي ما دون الحدين؛ يعني إذا كانت الكبيرة هذا حدها وهذا ضابطها، فما دونها فمعنى ذلك أن مادون الحدين -حد الدنيا وحد الآخرة - فما دون ذلك فهو من الصغائر،

فكل معصية أو ذنب لم يأتِ فيه حد في الدنيا و لم يأتِ فيه وعيد في الآخرة، لم يقل عن فاعله في النصوص: غضب الله عليه، أو لعنه، أو أنه لا يدخل الجنة، أو أنه في النار، أو أنه ليس منا، أو لا يؤمن.. أو غير ذلك من الضوابط التي مرت، فهذا يكون من الصغائر.

فإذن الذنوب مقسمة إلي صغائر وكبائر، والكبائر هذا ضابطها، وما دونها فهو من الصغائر.

والصغيرة كما نبّه أهل العلم قد يحتف بفعل الإنسان لها من الاستخفاف والاستهانة والإصرار عليها والدعوة إليها أو نحو ذلك ما يجعلها قد ترتقي إلى كبيرة أو إلى أن تكون كبيرة كما جاء عن ابن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في تتمة الأثر السابق: (ولا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع استغفار)؛ لأن الكبيرة إذا تاب منها انتهت، إذا تاب توبة صادقة إلى الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-انتهت، ومن تابَ تاب الله عليه، والصغيرة قد يحتف بها من الإصرار عليها والاستخفاف والاستهانة وعدم المبالاة والدعوة إليها ما يجعلها ترتقي إلي أن تكون كبيرة.

[المتن]

مَعَ تَسْلِيمِ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الْكَبَائِرَ أَكْبَرُ مِن بَعضٍ، أَلا تَرىٰ أَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- عَدَّ الشِّرْكَ باللهِ مِن الْكَبائِرِ، قَالَ اللهُ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾[النساء:٤٨، ١١٦]. وقَالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾[المائدة:٧٢].

وَلابُدَّ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ النُّصُوصِ. قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟)) قَالَهَا ثَلاثًا. قَالُوا: بَلى يَا رَسُولُ اللهِ!، قَالَ: ((الْإِشْرَاكُ بالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ))، وَكَانَ مُتَّكِئاً فَجلَسَ فَقَالَ: ((أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ)). فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَت. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فَبَيَّنَ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أَنَّ قَولَ الزُّورِ مِن أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ. وَلَيسَ لَهُ ذِكرٌ فِي السَّبْعِ الْمُوبِقَاتِ، وَكَذَلِكَ الْعُقُوق.

[الشرح]

هنا أيضا ينبه المصنف- رحمه الله - إلى فائدة تتعلق بالكبائر، فهٰذه الذنوب التي وُصفت بأنها كبائر هي ليست على درجة واحدة، فبعضها أكبر من بعض وبعضها أشنع من بعض، فهي ليست على درجة واحدة، والنصوص دلت على أنّ الذنوب الكبائر بعضها أكبر من بعض، كما في الحديث الذي أشار إليه المصنف ((أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟)) و عّد النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في جملة

الكبائر وفي مقدمتها الشرك بالله وهو أظلم الظلم وأعظم الذنوب على الإطلاق، فهو الذنب الذي لا يغفر لصاحبه إذا مات عليه، لهذا أورد المصنف (قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾[النساء:٤٨، ١١٦]. وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾[المائدة:٧٢].) فالشرك كبيرة، وهو أكبر الكبائر، وهو ذنب لا يغفره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ لصاحبه إذا لقي الله به.

أما الذنوب الأخرى الكبيرة التي هي دون الشرك ودون الكفر بالله -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- أمرها تحت مشيئة الله كما في الآية :﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ ثم ذكر-رحمه الله- الحديث ((أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟)) وهـٰذا واضح وهو صريح في تفاوت هـٰذه الكبائر، وأنها ليست على درجة واحدة، وقال: (فَبَيَّنَ – عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أَنَّ قولَ الزُّورِ مِن أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ. وَلَيسَ لَهُ ذِكرٌ فِي السَّبْعِ الْمُوبِقَاتِ، وَكَذَلِكَ الْعُقُوق.). وهـٰذا فيه لفت انتباه إلى ما سبق الإشارة إليه وأن حديث السبع ليس حاصرا للكبائر في هـٰذا العدد، فلا بد من الجمع بين النصوص، والجمع بين النصوص لا يتأتّى إلا بالقول بعدم انحصار الكبائر في هـٰذا العدد الذي هو السبع.

هنا قبل الدخول في الكبائر أشير إلى بعض الأمور فيما يتعلق بالكبائر:

فالكبائر لها تقسيمات عند أهل العلم عديدة، ومن المفيد لطالب العلم أن يعرف تقسيمات الكبائر، وأيضا الاعتبارات التي تكون بها تلك التقسيمات.

فالذنوب تنقسم إلى كبائر و صغائر، وهذا التقسيم مر معنا.

تنقسم الكبائر إلى قسمين، أيضا مر معنا هذا التقسيم: ،.

- فعل محظور: فالزنا كبيرة وهو فعل محظور.
- ترك مأمور: ترك الصلاة كبيرة وهو ترك مأمور.

فالكبائر تنقسم إلي قسمين ترك مأمور و فعل محظور.

تنقسم الكبائر إلى قسمين أيضا باعتبار محلها:

- فهناك كبائر في القلب. هناك أعمال قلبية هي من الكبائر.
- وهناك كبائر في الجوارح. ،وهناك أعمال في الجوارح هي من الكبائر.

تنقسم إلى قسمين بهذا الاعتبار.

تنقسم إلى قسمين باعتبار آخر:

- قسم يتعلق بحقوق الله.
- قسم يتعلق بحقوق العباد.

فالشرك كبيرة وهو متعلق بحق الله، ترك الصلاة كبيرة وهو يتعلق بحق الله.

أكل مال اليتيم، السرقة، القتل وغير ذلك من الكبائر تتعلق بحقوق العباد. وكلها هي حقوق لله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– ولكن قيل عنها: إنها حقوق للعباد لأن للعباد فيها مطالبة وحقوق جعلها الله –تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ– لهم.

وأيضا هناك تقسيم للكبائر ذكره ابن القيم –رحمه الله– في كتابه الجواب الكافي، وهو تقسيم مفيد جدا للمسلم ولطالب العلم يتعلق بأصل الكبيرة وما يحركها في الإنسان، فذكر ابن القيم –رحمه الله – أن الذنوب تنقسم إلي أربعة أقسام، قال:

القسم الأول: الذنوب أو المعاصي الملكية يعني أي التي باعث العبد لفعلها أو المحرك للعبد لفعلها هو تعاليه وتكبره وتجبره وطغيانه وميله لهذا الأمر، فهذه الذنوب الملّكية، وهي أن تعاطى العبد الضعيف الفقير من صفات الله – تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ– ما لا يليق به مثل العظمة والكبرياء والجبروت ولهذا جاء في الحديث: ((**العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار**))، قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ**﴾[النحل:٢٣]، والنصوص في هـٰذا المعنى كثيرة، فهـٰذه الذنوب يقع فيها العبد استعلاءً ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ**﴾[القصص:٤]، استعلاء وتكبّرا وتعاظما وتعاليا، فمن صفات الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– ما لا يليق بالعبد، ومن ذلك ما أشرت إليه في الدرس ((**العظمة إزاري، والكبرياء ردائي**))، وعقوبة أهل هـٰذه الذنوب ما لم يتوبوا منها عند الله عظيم، وعاقبته شنيعة، ولقد جاء في حديث صحيح: ((**أن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أمثال الذر يطؤهم الناس بإقدامهم**)) وهـٰذا جزاء من جنس العمل. فهـٰذا قسم من أقسام أهل المعاصي والكبائر.

القسم الثاني: أهل المعاصي والذنوب الشيطانية، والتي يكون فعل العبد لها تشبّه بخصال الشيطان وخلاله، ومن ذلكم الحسد والمكر والكيد والنفاق والغل والدعوة إلى المعاصي والذنوب والترغيب فيها والتحذير من الطاعات والنهي عنها والأمر بالبدع وبالأهواء والضلالات، وكل ما قارف هـٰذه الأشياء صار متشبها بالشيطان؛ فهي دروب شيطانية؛ لأن فاعلها قد تشبه بفعلها بالشيطان وائتسى

به، مثل أن يكون الإنسان والعياذ بالله داعية إلى الضلال، داعية إلى المعاصي والآثام، وأن يكون محذرا من الطاعات، مخذِّلا عن العبادات، ناهيا عن فعلها، هـٰذا أخ الشيطان؛ بل هو شيطان كما قال الله عز وجل: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[الأنعام:١١٢]، فهو شيطان وأخ للشيطان لأنه ماثله في صفاته وشابهه في أفعاله خصاله، فهـٰذا نوع من الذنوب وقسم.

القسم الثالث: **الذنوب السبعية**، وهي الذنوب التي يتشبه فيها الإنسان بالوحوش الضارية والحيوانات المفترسة، هـٰذه تسمى ذنوب سبعية؛ مثل الغضب وسرعة الغضب، ومثل القتل ومثل ضرب الناس والاعتداء عليهم، فهـٰذه الذنوب وأمثالها كالصوت العالي واللزج والهيجان والثوران.. كل هـٰذه الصفات التي تظهر في السباع فعل الإنسان لها من هـٰذا القبيل، الذنوب السبعية التي يفعلها الإنسان ويكون فيها مشابها للحيوانات المفترسة.

حتى إنه درج عند الناس ومعروف ربما يُسمع بعض الأحيان بعض الأشخاص الذي تظهر فيه مثل هـٰذه الأعمال يقول عنه بعض الناس: هـٰذا ليس إنسانا، هـٰذا حيوانا، أو يقول: هـٰذا وحش أو يقول: هذا من السباع. تأتي هـٰذه الكلمة لأنهم رأوا فيه صفات ولا يعهدونها إلا في الحيوانات المفترسة، رأوا فيه صفات من هـٰذا القبيل.

هـٰذه الذنوب وأمثالها تسمى الذنوب السبعية يعني التي فعل الإنسان لها هو نوع من التشبه بالحيوان السبعي.

القسم الرابع: **الذنوب أو المعاصي البهيمية** التي يتشبه فيها الإنسان ببهيمة الأنعام، ويجمع هـٰذا النوع الشره والحرص على شهوة البطن وشهوة الفرج؛ أن يقضي شهوة بطنه بجلب المال وتحصيل المال بأي طريقة لا يبالي ولا يفكر؛ لأن الذي أمام عينيه تحصيل شهوة بطنه كيفما اتفق، فلا يبالي يأكل مال اليتيم، يأكل ما ليس له بحق، كل هـٰذه الأمور لا يبالي بها، يأكل الأشياء المحرمة يتناول الأمور الممنوعة لا يبالي بذلك. وأيضا همه شهوة فرجه وقضائها كيف ما اتفق زنا لواط.. أي طريقة المهم يقضي شهوة فرجه، فيكون بذلك شبيها ببهيمة الأنعام. فهـٰذا الصنف الذنوب تسمى الذنوب البهيمية.

ذنوب سبعية وذنوب بهيمية والله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[الإسراء:٧٠]، فالله عز وجل كرم الإنسان بالعقل، فكيف يتشبه بهذه الحيوانات البهيمة وبهذه الوحوش التي لا تعقل، كرمه الله وميزه فكيف يكون هـٰذا المكرم بالعقل وحشا ضاريا، أو كيف يكون الذي المكرم بالعقل حيوانا بهيما؟ ميزه الله بالعقل فينبغي أن يعمل عقله ويشغل عقله بأمور مفيدة ويبتعد عن الأمور المحرمة، ولاحظ في النصوص ولاسيما ما جاء في الصلاة النهي عن الإقعاء كإقعاء الكلب وافتراش السبع ونقر الغراب.. وهـٰذا كله تكريم الله عز وجل لبني آدم، ولا يكون بهذه الصلاة التي أشرف أعمال العبد يكون مثل هـٰذه الحيوانات إما يُقعي مثل الكلب أو يفترش مثل السبع أو ينقر مثل الغراب أو يرمي نفسه رميا عندما يهبط إلى الأرض مثل البعير، أيضا ورد التفات الثعلب.

المهم أن الله عز وجل كرم الإنسان أن يكون مثل هـٰذه الحيوانات الوحشية أو الحيوانات البهيمية كرمه الله عز وجل.

فإذن هـٰذا تقسيم ذكره أهل العلم، وهو فيه جدا للإنسان حتى يعرف مداخل هـٰذا الذنوب على نفسه فيغلقها، فيقول: الله عز وجل كرمني وشرفني وفضلني، فلماذا أكون مثل البهيم أو مثل الوحش، أو أكون متشبها بالشيطان، أو أتعالى وأتعاظم وأخرج نفسي من كوني عبدا فأدعي صفات الخالق الجليل والرب العظيم، وأتعالى على عباد الله عز وجل ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨)﴾[لقمان:١٨].

❁❁❁❁